عامان فى الحبشة

أتاحت لى الظروف أن أقضى مدة فى الحبشة ، تلك البلاد التى طالما شغلنى تاريخها وأدبها ولغاتها ، فأمكننى أن ألمس الحياة هناك عن قرب ، وأجد الجواب الشافى لما كان يدور فى ذهنى من أسئلة لم أكن لأستطيع أن أجيب عليها بسهولة .

ملاحظات جغرافية

أبحرت من السويس فى شهر مارس وهو من الشهور المعتدلة الحرارة ، فوصلت إلى چيبوتى عاصمة الصومال الفرنسى وميناءه ، بعد أن رفع عنها نطاق الحصار البحرى البريطانى . حرارة معرطوبة ليلَ نهارَ لا يدركهما خيال المصرى . والماء بها ساخن يميل إلى الملوحة ، بها لونان من ألوان الطعام ، أرز بالكركبة وسمك بالبسبسة ، وشعب خليط بين الصومال والعرب والهنود . ومع أن چيبوتى فرنسية شكلا فإنها يونانية الصبغة ، يتكلم أهلها العربية وأنت تحتاج إلى شىء كثير من المعرفة بمقارنة اللغات حتى تستطيع فهمها . وچيبوتى فى جملتها تعطيك فكرة عن جهنم . سار بنا القطار من چيبوتى إلى أديس أبابا مسافة ٧٩٩ كيلو متر فى مفازة جرداء خاوية إلا من بعض محطات السكة الحديدية أطلق عليها هذا الاسم تجاوزاً . ويعيش فى هذه الصحراء قبائل من الدناكل عارية النصف الأعلى من أجسادها ، لا ترى الرجل منهم إلا ممسكا رمحه مستنداً عليه رافعاً كعب قدمه اليسرى إلى أعلى فخذه الأيمن وقد يمضى الساعات على هذه الصورة دون تبديل .

وصل القطار إلى مدينة ديرداوة وهى أول مدينة حبشية كبيرة ، ترتفع عن سطح البحر ١٢٠٠ متر ، جوها معتدل نوعاً ، تتراوح حرارتها بين ١٨ و٣١ درجة مئوية . يصلها بمدينة هرر طريق معبد للسيارات يجتازه المسافر صعوداً إلى ارتفاع ١٩٠٠ متر فوق سطح البحر فى ساعتين . والطريق غنى بمناظره الطبيعية

الجميلة ، ومدينة هرر غنية بفواكهها وخضراواتها إلا أن صعوبة المواصلات بينها وبين أجزاء الإمبراطورية الأخرى فوّت استغلال هذه المميزات . وجوها معتدل جاف طول السنة ، يبلغ متوسط حرارته ٢٠ درجة مئوية . ثم يسير بك القطار من ديريداوة صاعداً الهضبة الحبشية صوب أديس أبابا فى طريق صخرى متنوع المناظر الخلابة .

تقع أديس أبابا على ارتفاع ٢٥٠٠ متر فوق سطح البحر ، جوها بارد كجو الخريف عندنا معدل حرارته بين ١٥ — ١٧ درجة مئوية . ولا يستطيع الإنسان مع هذا الارتفاع أن يبذل مجهوداً جسمانيا كبيراً . ويسقط مطرها فى موسمين : الموسم الصغير من مارس إلى مايو ومتوسط عدد الأيام الممطرة فى بحر الثلاثة الأشهر ٢٩ يوماً ومتوسط ما يسقط من المطر فى الشهر ١٠٠ مليمتر . أما الموسم الكبير فمن يونيه إلى سبتمبر وعدد الأيام الممطرة فيه ٩٢ يوماً ومتوسط ما يسقط من المطر فى الشهر ٢٢٠ مليمترا . ولكن هذه الأرقام لا تعطى صورة صادقة عن حالة المطر ، ولا يجدى الوصف لإعطاء المصرى صورة عن مطر الحبشة ، ولعل أسهل الصور إلى ذهنه أن يتصور ماء النيل مفتوحاً فوق رأسه بضع ساعات يومياً .

وبمجرد انتهاء موسم الأمطار تكسو البلاد طبقة من الزهور المتنوعة الجميلة وخضرة براقة ، كما تكثر الطيور التى تسترعى الأنظار بتباين ألوانها وتناسقها . وقد تسير فى طريق مدينة جمّة فتصحبك رائحة الياسمين البرى الذى يترعرع على جوانب الطريق ، وقد تسير فى طريق أديس أبابا — اسمرا وهو طريق يبلغ ١١٠٠ كيلومتر فتبهرك مناظره الطبيعية الخلابة من جباله وأوديته . وقد أطلق أهل أوربا على الحبشة بحق « سويسرا افريقيا » . وتمتاز الحبشة بوجود مياه معدنية بين ربوعها ، نذكر منها فى أديس أبابا « الفول وها » وهو نبع حار مجهز بالحمامات ، تخرج مياهه من منفذين أحدهما حرارته ٧٦ درجة مئوية والآخر ٥٧ درجة مئوية . ثم نبع « أرار جوتا » فى الطريق بين ديريداوة وأديس أبابا ، وهو نبع تبلغ حرارته ٤٠ درجة مئوية . ولعل أشهر ينابيعها ما وجد فى بلدة أمبو وهى تبعد عن أديس أبابا حوالى ١٣٠ كيلومتر ، منطقتها بديعة للناظر . وهى خط تقسيم مياه ثلاثة أنهر : النيل الأزرق وأواش وأمو . وحرارة نبعها ٣٠ درجة مئوية . وبها استعداد للحمامات ، على أنها لاتزال تفتقر إلى كثير من العناية .

المواصلات

تربط مصر بالحبشة وسائل ثلاث : الطائرة وهى أسبوعية ، فالسكة الحديدية تسير مرتين فى الأسبوع من القاهرة إلى أسمرا مارة بكسلا مع مواصلة من كسلا إلى أجوردات ثم تستمر بالسكة الحديدية إلى أسمرا ، وتستغرق المسافة بين القاهرة وأسمرا ، سبعة أيام ومن أسمرا تقطع سيارات الإمنيوبوس الطريق إلى أديس أبابا مرتين فى الشهر ، وتحتاج لقطع المسافة وهى ١١٠٠ كيلومتر إلى ثلاثة أيام .

أما الطريق الثالث فهو طريق البحر . وتبحر بواخر الشركة الخديوية الآن من السويس إلى جيبوتى مرتين فى الشهر ، ويستغرق الطريق فى البواخر العادية من أربعة إلى خمسة أيام إلا أن البواخر الخديوية تقطعه فى مدة تتراوح بين ١٠و١٢ يوماً ؛ لأن بواخرها تقف على جميع موانى البحر الأحمر تقريباً . ثم يسير القطار من جيبوتى إلى أديس أبابا ثلاث مرات فى الأسبوع والمسافة ٧٩٩ كيلومترا يقطعها القطار المباشر فى ٣٦ ساعة . أما قطار المواصلة فيضطرك للمبيت ليلة فى ديرداوه .

والملاحظ أن هذه الطرق الثلاث لا تكفى لربط الحبشة بالخارج من الوجهة التجارية . لذلك تسعى الحكومة الأثيوبية أن تتلافى هذه الصعوبات بتوجيه اهتمامها لدى الدول المختصة بوسائل مختلفة ، منها :

١ — التفاهم مع حكومة الصومال الفرنسى لإمكان تعزيز الخط الحديدى وخفض أجور النقل . وقد التفتت الحكومة إلى هذه النقطة فى المعاهدة البريطانية الأثيوبية سنة ١٩٤٤ ، وكذلك نسمع هذه الأيام من الصحف عن اتصالات الفرنسيين والأثيوبيين فى هذا الصدد .

٢ — استيراد سيارات الشحن الكبيرة لتيسير النقل بين أديس أبابا وأسمرا ومنها إلى ميناء مصوع . ويحتاج هذا إلى التفاهم مع الإدارة البريطانية القائمة بأرتريا إذ أن ما أحضره الطليان أصبح لا يفى بالغرض المطلوب لسوء حالة السيارات بعد مضى مدة طويلة ، هذا فضلا من ارتفاع أجور النقل .

٣ — تحسين الطريق القديم الذى يربط الحبشة بأعالى السودان ومنها إلى

مصر . والطريق صالح فى جميع أوقات السنة ما عدا موسم الأمطار الكبير ، وهو الطريق البرى إلى جميلا ، وهى مدينة تقع على حدود السودان وتبعد عن أديس أبابا حوالى ٧٠٠ كيلومتر ثم تتغير وسيلة النقل عند جميلا من الطريق البرى إلى النهرى على السوباط فالنيل الأبيض حتى الخرطوم . وتحتاج الرحلة إلى ثلاثة أسابيع على الأقل . وهذا الطريق يمر وسط الأقاليم الغنية بالحبشة مثل الأروس وكافاووجا ، وهى الأقاليم التى تنتج الحبوب والبن والأخشاب . ومن الممكن أن تزداد تجارة هذه الأقاليم مع السودان ومصر إذا أمكن أن ترسل البضائع منها إلى الخارج رأساً أى بدون أن تمر بأديس أبابا . أما طول الطريق وما يحتاج إليه من وقت فقد لا يضر فى هذه الحالة إذ أن تلك الأنواع من البضائع لا يتلفها طول الوقت . وأظن أن الاهتمام بتحسين هذا الطريق واتفاق حكومة أثيوبيا مع حكومة السودان يجرى فى سبيل يبعث على الارتياح .

وتفكر الحكومة الأثيوبية أيضاً فى مد خط حديدى يصل أديس أبابا بالسودان ، وقد يساعد هذا أيضاً — إذا تم — على تبادل التجارة .

ونلاحظ أن الطليان فى وقت الاحتلال قد بذلوا جهداً ومالاً لتحسين طرق المواصلات ؛ لأن المعروف أن وحدة الحبشة السياسية واستغلال مواردها وارتياد مناطقها لا يتم إلا بإنشاء شبكة من الطرق . ولكن صيانة هذه الطرق وإصلاحها يستنفدان مالاً كثيراً ، أظن أن ميزانية الدولة الأثيوبية لا تحتملها إلا بمقدار .

الجنس

تمتاز الحبشة بتعدد الأجناس فيها ، حتى إن العلماء يطلقون عليها « متحف الشعوب » . وفى رأيى أن تاريخ الحبشة فى عصوره المختلفة لا يمكن أن يفهم على حقيقته إلا إذا أقمنا اعتباراً لمشكلة الجنس . وأهم العناصر التى تتكون منها أجناس الحبشة ثلاثة : عنصر سامى ، وعنصر كوشى ، وعنصر أفريقى . أما العنصر السامى فقد دخل البلاد من الشرق وأتى من جزيرة العرب . ويظهر أنه استمر فى دخول الحبشة عن طريقين طريق الأرتريا وطريق الصومال . وقد نفهم كيفية دخوله على مر السنين من ملاحظة ما هو حادث الآن فى الحبشة . فأهالى اليمن

وحضرموت منتشرون فى جميع البلاد الصغيرة والكبيرة يحترفون التجارة الكبيرة منها والصغيرة ، وهم يهاجرون بالتدريج إلى الحبشة . هذه ظاهرة أظنها لا تختلف عما كان يحدث بل هى استمرار للقديم . ويمكننا أن نتصور كيف كوّن هؤلاء الساميون لأنفسهم قديماً قوة فسلطاناً فملكا . وهذا يعلل لنا الصلة القوية الطبيعية المستمرة بين شبه الجزيرة العربية وسواحل الحبشة على البحر الأحمر قبل ظهور الإسلام وبعده . ومما هو جدير بالذكر ما نعلمه عن وصول مهاجرين يبلغ عددهم ٨٠٠ نسمة حوالى عام ١٨٦٩ من قبيلة الرشايدة من أهالى منطقة جدة واستقرارهم على الشاطئ الشمالى فى أرتريا . وأهم العناصر السامية الآن : الأمهرا والشعوب التى تتكلم التجرى والتجرينيا والهررية ثم العرب .

أما العناصر الكوشية (الحامية) فقد دخلت الحبشة من الشمال والشمال الغربى ، أهمها الجالا والصومال ، وكانت مصدر حروب دائمة مع العنصر السامى .

أما العناصر الأفريقية فأتت من الجنوب والجنوب الغربى ، وأظهرها الشنقلا والولجا ، وهى العناصر التى يعتبرها الحبشى من العبيد . ونلاحظ أن اسم قبيلة شنقلا أصبح يطلق اصطلاحاً بمعنى العبد .

وعلى الرغم من اختلاط بعض العناصر الأخرى بالجنس الأصلى فإن التمييز بين العناصر المختلفة من حيث الشكل سهل ميسور .

كان السلطان منذ فجر التاريخ الحبشى فى القرن الثالث الميلادى إلى احتلال إيطاليا فى يد العنصر السامى . وقد جاهد الجنس السامى الحاكم فى كل العصور التاريخية حتى حافظ على هذا السلطان . ولاحظ الطليان هذه الظاهرة عند دخولهم الحبشة فأرادوا أن يغيروا الوضع عندما حاولوا الحط من قيمة العنصر الأمهرى وهو العنصر الحاكم بل القضاء عليه ورفعوا من شأن الجالا والصومال والعرب الداخلين وغيرهم وقربوهم إليهم . فنشأ من تغيير الوضع القديم بمثل هذه السرعة مشكلة تواجهها الحكومة الأثيوبية الآن إلا أنها تعالجها بحكمة ؛ فقد أبقت الوضع الجديد الذى خلقه الطليان وبدأت تدخل بالتدريج العنصر الأمهرى الذى استبعده الطليان ، وأمكنها بذلك أن توازن بين الأجناس المختلفة . وهذه أول مرة فى تاريخ الحبشة يسوى فيها بين جميع الأجناس ، وهذا بدوره سيقضى على كل الثورات الداخلية فى المستقبل ويقوى وحدة أثيوبيا القومية والسياسية .

اللغة

يتبع تعدد الأجناس تعدد اللغات فى الحبشة ، بل أكثر من هذا فان الجنس الواحد قد تتفرع لغته إلى لهجات ، وهذه بدورها تتباعد عن الأصل مع مرور الزمن وتغير البيئة حتى تصبح لغة . والحبشة غنية بظواهرها اللغوية فإن وضعها الجغرافى وسط حضارات مختلفة من سامية وكوشية ونيلية وغيرها جعل منها بيئة صالحة للتطورات اللغوية .

وهناك ثلاث مجموعات من اللغات السامية والكوشية والنيلية . أما اللغات السامية فهى أكثرها انتشاراً بين العناصر السامية وغيرها ، وقد عددت ثمانى لغات مختلفة أهمها الجعز (أو كما ينطقونها الآن الجيز إذ أن نطق العين والحاء سقط تحت تأثير اختلاط الساميين بغيرهم) . وهذه اللغة أقدمها تاريخاً وهى لغة الكنيسة إلى الآن ، وكانت إلى عصر قريب لغة الأدب الذى لم يصلنا منه إلا الأدب الكنسى ومعظمه إن لم يكن كله مترجم عن الأدب القبطى العربى ، وهى فى تراكيبها ومعانى كلماتها أقرب ما تكون إلى اللغة العربية . أما اللغة الأمهرية فهى لغة الدولة منذ القرن الثالث عشر الميلادى إلى الآن ، ونعتبرها أختاً للجعز وليست مشتقة منها ، وهى متأثرة فى صيغتها باللغات غير السامية التى عاشت بينها قروناً طويلة قبل أن تصير لغة الدولة .

واللغة العربية منتشرة على الشواطئ وفى الداخل خصوصاً فى المراكز التجارية . أما اللغة الهررية فهى لغة سامية أيضاً تكتب بحروف عربية .

وأما اللغات الكوشية فقد عددت منها تسع عشرة ، أهمها لغات الجالا والصومال . ولغة الجالا موسيقية رقيقة على السمع فيها أدب شعبى كبير لم يدون وقد بدأ المستشرقون فى جمعه ونشره بالحروف اللاتينية .

أما اللغات النيلية فلم نتمكن من إحصائها كلها إحصاء دقيقاً ، وقد عرفنا منها إلى الآن أربع عشرة لغة ، أهمها الكوناما والباريا . وتعد الآن اللغة الأمهرية أهم هذه اللغات شأناً إذ أنها اللغة الرسمية للدولة . وقد اهتمت الحكومة الأثيوبية أخيراً بأن تعمم استعمالها فى جميع مناطق الحبشة . فإن توحيد لغة الكتابة أول

مظهر من مظاهر القومية . وليس معنى هذا أن يقضى على اللغات الأخرى بل على العكس قد اهتم جلالة الإمبراطور مثلاً بتعليم اللغة العربية فى المناطق المختلفة وخاصة تلك التى يكثر فيها المسلمون . ولكن جلالته أشار بأن يوجه التعليم فى اللغات توجيهاً قومياً . وقد عهد إلىّ بوضع كتب فى المطالعة العربية وقواعدها يراعى فيه هذا الاتجاه القومى ، كما عهد إلى أحد الأساتذة من الأمريكيين فى وضع كتاب للمطالعة الإنجليزية يراعى فيه الاتجاه نفسه . وهناك مدرسون للغة العربية فى المدارس الحكومية فى هرر وديريداوة وچججه وأديس أبابا وديسى وچمة .

ومع أن اللغة الأمهرية كانت لغة التخاطب منذ قرون فانها لم تصل إلى مستوى اللغات الأدبية إلا قريباً ؛ فإن أقدم ما وصلنا منها مكتوباً يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى ولعل ضعفها يرجع إلى وجود لغة الكنيسة (الجعز) إلى جانبها . ولما اشتد الجدل بين رجال الدين من الأحباش وبين الإرساليات التبشيرية الأجنبية منذ القرن السادس عشر وشرع رجال الإرساليات من الكاثوليك فى تدوين آرائهم بالأمهرية لم يجد رجال الدين الحبشى بدًّا من الرد عليهم بالأمهرية ، ومن ثم ترجم الكتاب المقدس بالتدريج إلى الأمهرية ، وهكذا رفعت اللغة الأمهرية إلى مصاف اللغات الأدبية .

ويواجه الأحباش مشاكل لغوية كثيرة حتى يجعلوا هذه اللغة تساير الحضارة . وقد أمكننى أن أساعد أثناء إقامتى هناك على وضع المصطلحات العلمية فى الحساب والهندسة العملية والجغرافيا . ولكن الصعوبة التى وجدتها ويجدها أهل الفنون المختلفة من الأحباش هى رفضهم إدخال المصطلحات الأجنبية بلفظها ، فإذا أخذنا فى ترجمة المصطلحات إلى اللغة الامهرية — كما فعلت — وجدها الناس لا تتفق مع ما اعتادوا عليه من معانى الألفاظ الأصلية فاستغربوها . وهكذا تحتاج المصطلحات العلمية إلى وقت طويل حتى يستسيغها الناس كما هو الحال عندنا . واللغة سائرة فى دور التطور ، إلا أن الأحباش يبالغون الآن فى التمسك بها والتعصب لها . وربما كان لهم بعض العذر فى هذا التصرف ؛ فقد خرجوا من الاحتلال الإيطالى الذى حاول القضاء على لغتهم بمنع تدريسها فى المدارس وإحلال اللغة الإيطالية محلها ، فلما استردوا بلادهم وجدوا أن الطليان قطعوا ما بينهم وبين ما كانوا قد شرعوا فيه من احياء اللغة .

كانت اللغة الامهرية غير منتشرة انتشاراً بعيداً فى أنحاء الحبشة ، إلا أن الاحتلال الإيطالى أظهر للأحباش جليا قيمة اللغة الواحدة فى إنشاء الوحدة ؛ إذ أن المسافر الآن يمكنه أن يتفاهم باللغة الإيطالية فى جميع أنحاء الحبشة بعد خمس سنوات من الاحتلال ، وقد سمعت رجلين من الجالا والأمهرا يتفاهمان فيما بينهما بالإيطالية .

الأدب الشعبى

والشعب الحبشى لديه إحساس أدبى رفيع يظهر فى الأدب الشعبى من شعر قصصى وحكم وأمثال وهم مغرمون بالتلاعب بالألفاظ والجناس والكنايات والمعانى المجازية وما إلى ذلك ، إلا أن أثر الأدب الكنسى جعلهم يشعرون بأن تدوين هذه الآداب الشعبية يتنافى مع الوقار ؛ فلذلك لا يعطينا الأدب الأمهرى المكتوب صورة صحيحة عن الشعب الحبشى . وسأحاول أن أعرض بعض أنواع الأدب الأمهرى المتداول بين الشعب .

ولعل الشعر هو أظهر أنواع هذا الأدب ، وقلما تجد إنساناً هناك لا يزن الشعر ويغنيه على القيثار ، وهم يلتزمون القافية فى الشعر ، فتجد عندهم الشعر الذى يتغنى به الأبطال وأظنه معروفاً من زمان قديم بسبب الحروب الدائمة التى مرت على الحبشة ، ومثاله :

« افسحوا الطريق
لباشا أبى الشجاع
فهو يعرف كيف يصلح الحال بفرسه الأبيض
يعرف من يقتل ومن يرحم
خضّب أيدى وأرجل الفرسان »

وكذلك ينتشر بينهم شعر التهريج الذى ينشدونه فى المناسبات المختلفة مثل رأس السنة وأول الصيام والأعياد المختلفة . ولكل مناسبة من هذه المناسبات نغمة معروفة ينشدون بها الأشعار المختلفة ، بل قد تجد نغمة

للأطفال ونغمة للبنات ونغمة للشبان . ووزن هذا الشعر قصير ذو أربعة أو خمسة مقاطع ، ومنه :

« أمضيت نهارى أناجى الزهور
وعند المساء طبخت الفول
أعطيت زوجى ليأكل
فضربنى بالمغرفة على ضلوعى »

ثم هناك نوع آخر من الشعر وهو الشعر الإمبراطورى يقال فى المناسبات المختلفة فى يوم التتويج أو الميلاد أو غيره . وهو شعر وزنه فى الغالب رزين ستة مقاطع ، يتحاشى فيه الشاعر المعانى المجازية حتى لا يحمل على غير محمله . وإليك بعض أبيات مقتبسة من قصيدة فى عيد ميلاد الإمبراطور :

« إن لم تولد يا مخلصنا
فمن تجد بلادنا الفردوسية
نود أن نغنى لك أناشيد جميلة
أحلى من العسل والسكر
قد أضاءت أثيوبيا بنور ساطع
واختفى الليل وصار نهاراً . »

وكذلك يتبارى الشعراء فى تقوية القومية عند النشء بوضع أناشيد قومية عن أثيوبيا ، مثال ذلك :

« أثيوبيا التى تنتج لإرضاء أطفالها
تنبت الزرع بدون أن تبذر — لا تتعب كثيراً
تحمى القمح وتقلع الحشائش
رأينا كيف تطعمنا بعد أن أنضجتنا الشمس
وطننا يمثل بالحصاد
ومملكتنا بالمطر . »

وهم يحثون النشء على تعلم اللغة الأمهرية قبل كل شىء ، من ذلك قولهم :

« لساننا كالملعقة الصغيرة
لا يقوى أن يحمل مع لغتنا لغة أخرى
إذا عرفت جيداً الجيز والأمهرية
يمكنك بعد ذلك أن تسرق اللغات الأجنبية . »

ولكن الشعر المفضل عندهم هو الشعر الذى يحمل معنى مجازيا ، ويزداد شغفهم به كلما شعروا بضغط سياسى داخلى أو خارجى أو إذا أرادوا ان يوجهوا النقد الاجتماعى أوالسياسى . وقد انتشر هذا أيام الطليان حتى إنه ضايقهم كثيراً ، ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء عليه . وهذا النوع من الشعر قصير يتغنى به . ومن أمثلة ذلك :

« قد حل الوباء فى منزلنا
متى يمكن أن نتحرر من هذا الداء »

وقد ظهرت قصيدة عام ١٩٣٧ أيام الاحتلال الإيطالى على طريقة المجاذبة يقول الأول :

حل يوم الوليمة
هلا ساعدتنى فى إحضار الخبز والتوابل !

فيرد الثانى :

لا مانع عندى سأضع ما فى استطاعتى
فطاهيتنا خضراء تعرف الواجب
يمكننا أن نحضر الحبة البيضاء
وأنت تحضر الحبة السوداء

القول الأول موجه من الإمبراطور لكى يساعده الشباب على طرد العدو فيرد عليه شباب أثيوبيا (اسم الطاهية خضراء) بأنه على استعداد لطرد الطليان

(الحبة البيضاء) وما على الإمبراطور إلا أن يحضر ليحكم أثيوبيا (الحبة السوداء) .

وقد يوجه النقد إلى الحكام على هذا النحو :

« أسمع صوت الناى والنفير ، أين هذا ؟

الناى فى الباب المسروق (اسم الباب الخلفى من القصر الإمبراطورى) والنفير فى القصر (ومعنى الكلمة أيضاً الزواج) »

أى إن الترقية لا تأتى إلا عن طريقين : الأول السرقة وإعطاء الرشوة ، والآخر الزواج من بنات العظماء .

وللأحباش غرام خاص بالأمثال والحكم ، فهم يقولون « يجب أن يبدأ الحديث بحكمة كما يبدأ النشيد بهليلويا » والحكمة عندهم — كما فى غيرها من اللغات — مختصرة يغلب عليها السجع ، ولذلك يصعب نقلها إلى لغة أخرى إذ يضيع رونقها وبلاغتها ولكن معناها يكفى ليدل على ناحية من أنحاء الشعب فى التفكير ، ويصور — إلى حد ما — بعض خصائص حياته الاجتماعية . وسأسوق طرفاً مما جمعته منها :

— من يقاضى كثيراً لا يربح .
— إذا كانت العصا فى يدى فالحق فى فمى
— إذا دخل المرأة الكبرياء احترق الغداء والعشاء
— من تحبه المرأة فمصيره إلى جهم
— وطن المرأة زوجها
— العصا للحمار والنساء
— أنظر إلى الأم ثم تزوج البنت
— القروى خجول فى ما كله جرىء فى كلامه
— يكره القروى من يحترمه
— لا يمكن الأجنبى أن يستقر (أى لا جذور للأجنبى)
— صداقة الأجنبى كالماء ينقصه البهاء
— الأجنبى كالخيط ينفذ من الإبرة ثم لا يلبث أن ينتشر كالجليز

— على الإنسان الابتداء وعلى الله الانهاء
— التفاهم أهم من العلم ، والتجفيف أهم من الغسل ، والاستعلام أهم من السفر .
— البطين لا يعرف الحب
— من يتكلم أولاً يكره ، الفاكهة التى تنضج أولاً يأكلها العصفور
— الرئيس والقطن إذا بيتا ثقلا
— رب تلميذ أعلم من أستاذه
— لا تمسك ذنب النمر ، فإذا أمسكته فلا تتركه
— اترك قلبك يحترق خير من يدك
— أرى البائس فتؤلمنى عينى (يقال للبخيل)
— الاتحاد يورث القوة ، والحرية تنشر المعرفة
— اسمع واسكت يرض الله عنك
— إذا أقفلت فاك لا يدخله الذباب
— اسمع قبل أن تتكلم ، وامضغ قبل أن تبلع
— تشاجرت بطتان على قمع غيرهما
— يمكنك أن تسرق بقرة الأخرس
— إقبل ما تعطاه ، واذكر ما يصنع معك
— القرية المكتظة بالعزّاب تجدب بعد عام
— لابد للفجر والحقيقة أن يظهرا
— أطعمه حتى لا يتكلم ، وادفعه حتى لا يأكل
— الخمر : الكأس الأولى تلهب قلبك ، والثانية تبرد قلبك ، والثالثة تحقد قلبك والرابعة تسل سيفك
— مرر عسله وسوّد لبنه
— دخل ليشرب فجلس ، ثم انتهى بأن ورث
— قبل أن تلف العمامة كن عالماً
— لا ترى الإبرة سمها الصغير ، وبالرغم من هذا فقائدتها كبيرة
— يكون الضيف ذهباً ثم فضة ثم حديداً
— إذا ضربت الأنف بكت العين

— الملك أعظم من رسوله
— مهما تجمع الذباب فلن يفتح الجرة
— إن لم تقترض تعش فى سلام
— الطفل الذى لم يتعود الضرب يبكى إذا لمسته
— أشجع الشجعان من يطعن وهو جالس
— السماء قريب للجالس
— اجعل غيرك يعطى خير من أن تعطى
— شيطان معروف خير من قديس مجهول
— اذا شفى المريض نسى الله
— إذا أردت أن تفضح الكاذب فاسأل أخاه وأخته
— إذا لم تمطر السماء سامت البيوت ، وإذا لم تحضر الضيوف سامت النساء
— لا يمكث الزبد فى بطن الكلب (يقال لمن لا يحفظ السر)
— لا يمكن أن أبكى إلا من عينى ، ولا يمسح دموعى غيرى
— تعرف البقرة عالفها لا صاحبها
— يطيع المرء حكمه أكثر مما يطيع حكومته
— جارك القريب ولا قريبك البعيد
— شاهد لا يخيف وعين لا تؤكد (أى لا تخف من شهادة شاهد واحد عليك ، فما رأته عين واحدة لا يمكن إقامة الدليل عليه)
— إذا احترق بيت غيرك خيل إليك أنه قش يحترق
— إذا أكل الخادم الدسم احتاج إلى من يؤدى عمله
— ما يتركه الأسد يأكله الضبع
— الأقارب والدواء تحتاج إليهما فى اليوم العسير
— يحب الإنسان أن يرى أولاده تقبّل ، وما يقدمه للضيوف يؤكل
— فرق عظيم بين من يضحك من الفرح ومن يضحك الألم
— الأرض التى تتعب تنتج الحشائش
— ليس للموت قانون
— من يعطى العالم درساً كمن يقطع اللحم للأسد

— إذا أمكنك أن تمسك سيدك من رجله أمكنك أن تضربه
— المعلم الحليق كالكنيسة الجرداء
— العمل الموكول إلى الشيوخ ينجح إن عاجلا أو آجلا
— تعرف قدر المرء من قوله
— اذا تكلم السفيه سمعه العاقل
— يحكم على البغل بمنظره ، وعلى الخادم بعمله

وقد تغلغل الغرام بالحكم والامثال عندهم حتى لقد ينطق القاضى حكمه فى قضية بحكمة قصيرة تنطبق على مادة من مواد القانون الجنائى ، فمنها :

— لا يقاضى الميت فإن ما سكب لا يمكن أن يغرف
— ينبح الكلب حيث يأكل (اللص يجلد حيث سرق)
— كما يمكن السماك أن يصطاد الحية البرية ، كذلك يمكن من يبحث عن مال غيره أن يضيع ماله
— يؤذى الشر فاعله كما يؤذى حد السيف جرابه
— لا تلعب مع الطفل فإنه يخزك بالعصا
— كما أن الخشبة لا تحترق وحدها ، كذلك الإنسان لا يحكم وحده (واحد لا يحترق ، واحد لا يحكم)

هذه هى أهم مناحى الأدب الأمهرى الشعبى . بقى نوع آخر وهو القصص . وقد اتجه الأحباش فى قصصهم اتجاها غير قصص الشاطر حسن والغول إلى آخر ما هو معروف عندنا ؛ فقد أولعوا بقصص الحيوانات وفضلوه على غيره ؛ إذ أن المجال فيه واسع لتوجيه انتقاداتهم وهم فى مأمن من السلطان . إلا أن القصص بوجه عام قليل فى الأدب الأمهرى ولو أنه تطور تطوراً محسوساً فى أدب الجالا الشعبى ، وهو يذكرنا إلى حد ما بقصص إيزوب وابن المقفع ولافونتين . وإليك مثالاً من هذا القصص فى أدب الجالا : الضبع وابن آوى

« فى يوم من الأيام التقى ضبع مع ابن آوى فى غابة . فقبض الضبع على ابن آوى ثم قال له : إما أن تحضر لى ماء وإما أن تهيئ لى مكاناً للراحة . فقال له ابن آوى وهو يرتعد من الخوف : لو كنت أنا رجلاً لما جسرت على معاملتى بهذا الشكل السيىء . فسأله الضبع قائلاً : ما هو الرجل ؟ فأجاب : إذا أردت فتعال معى دلك على معنى الرجل . وبينما هما يسيران مرّا على رجل مسن ، فسأله الضبع قائلاً : أهذا هو الرجل ؟ فقال ابن آوى لا ، هذا كان رجلاً ، وهو الآن ليس برجل . فاستمرا فى السير حتى لقيا صبياً ، فسأله الضبع هل هذا هو الرجل ؟ فأجاب ابن آوى لا ، هذا سيصير رجلاً . وبينما هما فى طريقهما مرّا بشاب فى يده بندقية ، فساله الضبع هل هذا هو الرجل ؟ فأجاب ابن آوى قائلاً هذا هو رجل حقًا ، إذا كنت شجاعاً فاقبض عليه . فذهب الضبع لينقض عليه . فأطاق الرجل رصاصة أصابت أذنه ، فصدق الضبع حينئذ ابن آوى وفرك أذنه ثم ولى هارباً »

دكتور مراد كامل

(يتبع)